عرض كتاب من التراث الطبي بالمغرب الإسلامي: "طب الفقراء والمساكين" لابن الجزار القيرواني.

دة. نوال بلمداني*

مقدمة: كان علم الطب من أهم العلوم التي أبدى العرب المسلمون اهتمامًا ملحوظًا بدراستها، وهو من العلوم التي حث الرسول الكريم على الاهتمام بدراستها لقوله: "العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان"، كما تتبع هؤلاء أهم ما توصل إليه علماء اليونان في اغناء هذا الجانب، فانكبوا على ترجمة الكتب الطبية اليونانية ودراستها وتشخيص مواضع الخطأ فيها بعد أن توصلوا إلى اكتشافات رائعة بالتجربة والتطبيق العلمي، كما أضاف المسلمون إلى علم الطب إضافات قيمة أسهمت في تطويره وتقدمه؛ فبرز على أثر ذلك عدد كبير من الأطباء الذين دوت أسماؤهم ومؤلفاتهم وانجازاتهم الطبية في جميع الأنحاء، وكان من بين أولئك الأطباء أطباء المغرب والأندلس الذين أسهموا في تلك النهضة الطبية، ومن بينهم شخصية ابن الجزّار القيرواني.

* **من هو ابن الجزار القيرواني؟** أحمد بن إبراهيم القيرواني الشهير بابن الجزّار، من أهل القيروان[1]، ومن رجال القرن الرابع من الهجرة، ينتمي إلى أسرة اشتهرت بالطب وتوارثوه، فهو "طبيب ابن طبيب، وعمّه أبو بكر طبيب أيضاً"[2]، أي من أسرة عريقة في علم الطب ومزاولته، فلا غرو في أن يحذو حَذْوَ أهله، ويقتفي أثرهم في اختيار مهنة الطب والبراعة فيها، مستفيداً من معارفهم وتجاربهم، ليكون بذلك نموذج لأولئك النفر من الأطباء العرب الذين تميزوا بسعة الأفق العلمي والنظرة الشاملة للإنسان، بأطواره ومراحل حياته، وحاجاته المختلفة.

كما تتلمذ على الطبيب الكبير أبي يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وكان هذا الأخير "طبيبا لسنا عالما بتقاسيم الكلام"[3]، وهو طبيب فاضل بليغ عالم، مشهور بالحذق والمعرفة، جيد التصنيف، عالي الهمة، وكان من أهل مصر في الأصل، ثم جاء إلى القيروان وأقام فيها، وخدم الإمام أبا

*أستاذة محاضرة أ في تاريخ المغرب الإسلامي– شعبة التاريخ– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة مصطفى اسطمبولي– معسكر، وعضو باحث في مختبر تاريخ الجزائر– جامعة وهران 1 أحمد بن بلة.

محمد عبيد الله المهدي صاحب إفريقية، بصناعة الطب[4]، وتوفي قريباً من سنة عشرين وثلاثمائة، وخلّف كتباً كثيرة في الطب والأدوية والأغذية، وقد لقيه ابن الجزار، وصَحِبَه وأخذ عنه العلم حتى برع فيه[5].

تميز ابن الجزار بصفات فاضلة، إذ "أخذ لنفسه مأخذاً عجيباً في سمته وهديه وقعوده. ولم يحفظ عليه بالقيروان زلّة قط، ولا أخلد إلى لذة، وكان يشهد الجنائز والأعراس ولا يأكل فيها...، وكان ينهض كل عام إلى المنستير فيكون هناك طول أيام القيظ، ثم ينصرف إلى إفريقية"[6]، وهو من الأطباء الذين فرقوا بين الطب والصيدلة؛ وهذا ما جعله يعدّ صيدلية جوار داره وأجلس فيها غلاما له، يسمى برشيق، أعد بين يديه جميع المعجونات والأشربة، فإذا رأى القوارير بالغداة، أمر بالجواز إلى الغلام وأخذ الأدوية منه، نزاهة بنفسه أن يأخذ من أحد شيئا[7].

وحسب ما توفر من نصوص مصدرية تبين أنّ مُؤَلِّفنا عرف بعلو همته وشرف نفسه واستقامة سلوكه، حيث يمدحه ابن صاعد الأندلسي قائلا: "كان... جميل المذهب، فاضل السيرة، صائنا لنفسه، منقبضا عن الملوك، ذا وفرة وثروة"[8]، ويضيف ابن جلجل أنّه لم "يركب قط إلى أحد من رجال إفريقية ولا إلى سلطانهم إلاّ إلى أبي طالب عم معد (المقصود هنا الخليفة المعز لدين الله أبو تميم معد، توفي بمصر سنة 365هـ)، وكان صديقا له قديما؛ فكان يركب إليه يوم الجمعة لا غير"[9]، وهذا يعني أنّه لم يكن من الراغبين في التقرب لمن كانوا في السلطة آنذاك، لكن هذا لم يمنعه من معالجة المرضى مهما كانت منزلتهم الاجتماعية، ولعل الكتاب بين أيدينا دليل على ذلك؛ إذ لم ينس مساعدته للفقراء وضعفاء الحال.

غير أن هناك حادثة وقعت له مع أحد الخلفاء الفاطميين كادت أن تودي بحياة ابن الجزار، حيث يذكر المقريزي أن المنصور الفاطمي أصيب بمرض بسبب البرد الشديد والثلوج، التي تعرَّض لها في إحدى أسفاره، فأراد أن يدخل الحمّام وهو في طريق عودته، لكن طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي نهاه عن ذلك، فكأن المنصور امتعض من فعل طبيبه ذلك، فقرَّر دخول الحمام؛ "ففنيت الحرارة الغريزية منه، ولازمه السهر، فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر، فاشتدَّ ذلك على المنصور، وقال لبعض خواصِّه: أما في القيروان طبيب غير إسحاق؟ فأُحضر إليه شاب من الأطباء يقال له: أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار... فجمع له أشياء مخدِّرة... وكلَّفه شمَّها، فنام، وخرج وهو مسرور بما فعله، فجاء إسحاق ليدخل على المنصور، فقيل له: إنه نائم،

فقال: إن كان صنع له شيء ينام منه فقد مات، فدخلوا عليه فإذا هو ميت، فدفن في قصره. وأرادوا قتل ابن الجزار الذي صنع له المنام، فقام معه إسحاق، وقال: لا ذنب له، إنما داواه بما ذكره الأطباء، غير أنه جهل أصل المرض، وما عرَّفتموه؛ وذلك أنني في معالجته أقصدُ تقويةَ الحرارة الغريزية، وبها يكون النوم، فلمَّا عولج بما يطفئها علمت أنه قد مات"[10].

أمّا تاريخ وفاته فلم تصرح به المصادر المعول عليها، إذ اكتفى ابن أبي أصيبعة بالقول: "وعاش ابن الجزار نيفا وثمانين سنة ومات عتيا بالقيروان، ووجد له أربعة وعشرون ألف دينار، وخمسة وعشرون قنطارا من كتب طبية وغيرها"[11]، فيما يذكر ياقوت الحموي أنّه "كان أيام المعز بالله في حدود سنة خمسين وثلاثمائة أو ما قاربها"[12]، في حين يذكر ابن عذاري أن تاريخ وفاته كان سنة 369هـ[13]، ويقف كل من حاجي خليفة وعمر فروخ على أنه قد توفي نحو 400هـ/1010م[14].

مؤلفاته: اشتغل ابن الجزار في التأليف طوال حياته، إلى جانب مزاولته مهنة الطب والمداواة، وخلّف كتباً كثيرة، تعدّ تراثاً علمياً جليلاً، في الطب والتاريخ والأدب، فقد كان من أهل "الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم، حَسَنَ الفهم لها والدراية فيها"[15]، وهو ما يؤكده ابن صاعد الأندلسي مضيفا: "كان حافظا للطب دارسا للكتب جامعا لتواليف الأوائل... "[16].

وفي بيان تراثه العلمي وقيمته يقول ابن جلجل: "له في الطب تواليف عجيبة، وكان من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم، وله تواليف في غير الطب كتأليفه التواريخ وتأليفه كتاب الفصول والبلاغات"[17]، ويؤكد ياقوت الحموي ذلك قائلا: "كان طبيبا حاذقا دارسا كتبه جامعة لمؤلفات الأوائل، فيه حسن الفهم لها، وله مصنفات فيه وفي غيره"[18]، ويعد كتاب "طب الفقراء والمساكين" موضوع هذه المقالة واحدا منها، في حين أحصى ابن أبي أصيبعة (27) كتابا لابن الجزار الطبيب العالم المؤرخ الأديب[19].

غير أنّ هناك من الباحثين المهتمين بتاريخ هذا الطبيب الجليل من يؤكد على وجود مصنفات أخرى طبية وأخرى صيدلانية له؛ إذ أحصى الأستاذ إبراهيم بن مراد 43 عنوانا، وصنفها إلى مخطوط ومطبوع، ثم وضع قائمة بالكتب المفقودة في الطب وعلوم الحياة[20].

* **عرض كتاب "طب الفقراء والمساكين"**: يعد هذا المصنف من كتب الطب العامة، جمع فيه ابن الجزار الأدوية والعلاجات التي يسهل للفقراء وضعفاء الحال الحصول عليها، وهو ما سنشير إليه في دواعي التأليف.

1– النسخ التي اعتمدها محققا الكتاب: قام الأستاذان "الراضي الجازي" و"فاروق عمر العسلي" بتحقيق كتاب "طب الفقراء والمساكين سنة 2009م بمناسبة احتفالات القيروان عاصمة الثقافة الإسلامية، وهذا اعتمادا على نسخة ضمن مجموع مخطوط، تحتفظ به دار الوثائق في الخزانة العامة بالرباط، في قسم مخطوطات المكتبة الكَتّانية، برقم 938 ك، من الصفحة 82 إلى الصفحة 134، هذا بالإضافة إلى نسخة ملك للدكتور محمد الحبيب الهيلة، غير أنّ نسخة الرباط هي النسخة المعتمدة للمقارنة.

وسعيا لقراءة صحيحة استعن المحققان بثلاث نسخ أخرى، واحدة موجودة بالأسكوريال تحت رقم 857/2، وأخر بباريس تحت رقم 3038، ونسخة غوطا تحت رقم 2034[21]، هذا وقد ذكر خير الدين الزِّرِكْلِي في "الأعلام" حين ترجم لمؤلفه، إلى مخطوطتين أخريين له، قائلا: "طب الفقراء: رسالة مخطوطة في المتحف العراقي، ورأيتها في مجموع عند حمّاد بوعيّاد في الرباط"[22].

2– دوافع التأليف: يعد كتاب "**طب الفقراء والمساكين**" من المصادر الطبية التي تبحث في الأدوية الرخيصة الثمن، وكان الدافع إلى تأليفه حسب ما ورد عن مُؤلِّف الكتاب قائلا: "أني لما رأيت كثيراً من الفقراء وأهل المسكنة عجزوا عن إدراك منافع ذلك الكتاب[23] وغيره من سائر الكتب التي ألّفَتها الحكماء في حفظ الصحة على الأصحّاء وإبراء المرضى من وجعهم وردّهم إلى الصحة لفقرهم وقلّة طاقتهم عن وجود الأشياء التي هي مواد العلاج..."[24]، فأراد بذلك وضع مصنف لأجل هؤلاء ليكون سهل المأخذ يرجع إليه الفقراء للمداواة والنصح أو في حالة تعذر استحضار الطبيب حالا، وهو ما يؤكده بقوله: "ولتعذر وجود الطبيب لها في الكميّة والكيفيّة يكون شفاء من الأمراض، أعني الأطعمة والأشربة والأدوية"[25].

ومن النصوص الأخرى التي تؤكد دوافع تأليف هذا المصنف، النص الذي ذكره المؤلف في الخاتمة بقوله: "وإنما اختصرنا في هذا الكتاب اللطيف علاج العلل بالأدوية التي يسهل وجودها بأيسر كلفة وأخف مؤونة لينال منافعها عامة الناس وأهل الفقر والمسكنة منهم"[26].

3– **مصادره في هذا الكتاب:** اعتمد ابن الجزار كغيره من المؤلفين على مجموعة من المؤلفات، وهو ما يتضح من خلال اطلاعنا على محتوى الكتاب، فكثيرا ما ذكر أسماء المؤلفين، ونادرا ما يشير إلى عنوان الكتاب، وأحيانا أخرى يعمم ويذكر عبارة "زعمت الأطباء"[27]، أو "زعم بعض الأطباء"[28]، وفي صفحات أخرى "علماء الطب"[29].

أمّا عناوين المصنفات التي ذكرها هي: كتاب لينانوس الأنطاكي، "كتاب الأحجار" أرسطاطاليس، و"كتاب الأدوية" لجالينوس، وكتاب "الفلاحة الفارسية"، أمّا أسماء الأطباء الذين ذكرهم ضمن كتاب "طب الفقراء والمساكين"، وأخذ عنهم بعض التجارب والوصفات الطبية، اختلفوا بين لاتينيين وعرب وأحصيناهم في أربعة عشر مؤلفا، فمن مصادره اللاتينية: ارسطاليس– أرقليدوس– أركفانيس– أندرمحوش– أندروماخوس– اسقالقيدوس– أفلونيوس– بولس– دياسقوريدوس– روفس قريطون.

ومن الأطباء العرب: تيادوق– الطبري– ابن ماسويه– حنين ابن إسحاق، وما يثير الانتباه أنه لم يذكر ضمن الكتاب أيا من الأطباء العرب المشهورين آنذاك وعلى رأسهم الرازي، أو أساتذته إسحاق بن سليمان وإسحاق بن عمران، لا سيما وأنه ذكر في مقدمة كتابه قائلا: "هذه الأدوية جمعتها من كتب جالينوس ودسيقوريدس وبولس وغيرهم من أفاضل الأطباء"[30].

وكان أكثرهم ذكرا وشهرة من خلال المصنف الفيلسوف اليوناني الحكيم جالينوس؛ إذ ذكره أحدى وعشرون مرة (21)، وعُرِّفَ جالينوس على أنّه "إمام الأطباء في عصره ورئيس الطبيعيين في وقته ومؤلّف الكتب الجليلة في صناعة الطب وغيرها من علم الطبيعة وعلم البرهان"[31].

ومن خلال المصادر التي اعتمدها ابن الجزار يتبين لنا سعة علم المؤلِّف، ومعرفته بالمصادر الطبية والصيدلية بنوعيها اليوناني والعربي الإسلامي.

4– منهجه في الكتاب: اعتمد ابن الجزار المنهج التجريبي في مصنفه، فهو ينوه إلى من سبقه من أطباء في التجربة ومن أخذ عنهم، لكنه يقوم بدوره بضبط الحقيقة بالتجربة الشخصية (نلمس ذلك من خلال عدة وصفات)، غير أنه يقتصر على تسمية الأمراض دون التعرّض إلى علاماتها أو أسبابها، مطنبا في طرق المداواة بذكر عدد كثيف من المواد العلاجية، ففي علاج الصداع مثلا ذكر حاولي مائة وثلاثة وثلاثون مادة (133)[32]، وبعد ذكر المرض وما يفرقه عن أمراض أخرى مشابهة له، يشرح المؤلِّف مطولا كل ما يعرفه عن طرق العلاج.

كما نلمس من خلال محتوى المصنف، فصل مؤلفنا بين الطب والصيدلة أثناء دراسته لهما وأثناء علاجه للمرضى، ولم يعط اسمه لوصفة ليست له، بل كان جد حريصا على ذكر من قام بالتجربة، ففي البابين الثاني عشر والثالث عشر الخاصين بطريقة مداواة الخنازير وأورام الأذن ذكر مجموعة من العلاجات[33]، غير أنّه يؤكد بعدها قائلا: "... وهذه الأدوية التي ذكرنا قد ذكرها دياسقوريدوس وجالينوس"[34].

5– مضمون الكتاب: مما سبق ذكره نفهم أن ابن الجزار الطبيب قد ألّف كتبه الكبيرة المطولة في علم الطب والأدوية وعلاج العلل والأمراض، واستقصى فيها المعارف لفرض العلم والمعرفة بصورة مفصلة، ثم بدا له في آخر المطاف هدف آخر في إنجاز عمل، يتوجّه فيه لتوفير الخير والمنفعة لعامة الناس، فوضع هذا الكتاب، في صورة مختصرة، وقدّم فيه زبدة علمه، وخلاصة خبرته وتجاربه في "علاج العلل بالأدوية التي يسهل وَجودها بأيسر كلفة وأخفّ مؤونة، لينال منافعَه عامة الناس، لا سيما أهل الفقر والمسكنة"[35].

ولو حاولنا معرفة المواضيع التي تطرق إليها ابن الجزار فسنجدها تخص علاج أمراض الرأس، وعلاج أوجاع الصدر، وعلاج أمراض الجهاز الهضمي، وأمراض الجهاز البولي، وأمراض الرحم والولادة، وأمراض الجلد، وعن ذلك يقول مؤلفنا: "وسمّيت هذا الكتاب بطبّ الفقراء، ورتّبته على ثمانين باباً[36]، وهي موزعة كالتالي:

الباب الأول في الصداع المتولد من الحرارة.

الباب الثاني في الصداع المتولد من البرد المفرط.

الباب الثالث في علاج وجع الرأس من غير سبب.

الباب الرابع في علاج الوجع العارض من سقطة أو ضربة.

الباب الخامس في انسلاق الشعر وسقوطه.

الباب السادس في علاج القمل الكثير في الرأس.

الباب السابع في علاج الأذن والوجع الحادث فيها.

الباب الثامن في علاج وجع الأذن العارض من البرد.

الباب التاسع في علاج ثقل السمع والدَّوِيّ والطنين.

الباب العاشر في الدود الكائن فيها، والقيح والماء.

الباب الحادي عشر في علاج الريح العارض في الأذن.
الباب الثاني عشر في الورم العارض خلف الأذن.
الباب الثالث عشر في علاج أورام الحلق، بل الخنازير.
الباب الرابع عشر في علاج الظلمة التي تحدث في العين.
الباب الخامس عشر في علاج الغشاوة التي تحدث في العين.
الباب السادس عشر في علاج الدمعة التي تحدث في العين.
الباب السابع عشر في علاج تقوية حدقة العين.
الباب الثامن عشر في علاج الورم الذي يحدث في العين.
الباب التاسع عشر في علاج أمراض العين وما يحدث فيها.
الباب العشرون في علاج البياض الحادث في العين.
الباب الحادي والعشرون في علاج الضربة التي تصيب العين.
الباب الثاني والعشرون في علاج القروح التي تحدث في الأنف.
الباب الثالث والعشرون في علاج الرعاف من الأنف.
الباب الرابع والعشرون في علاج إفراط الرعاف وتقطيعه.
الباب الخامس والعشرون في علاج الزكام من الأنف.
الباب السادس والعشرون في علاج الكَلَف في الوجه.
الباب السابع والعشرون في علاج الأسنان.
الباب الثامن والعشرون في علاج وجع الأسنان وتآكلها.
الباب التاسع والعشرون في علاج الدود في الأضراس.
الباب الثلاثون في علاج الأسنان إذا علاها الوسخ.
الباب الحادي والثلاثون في علاج القروح التي تكون في الفم.
الباب الثاني والثلاثون في علاج السُّلاق الذي يكون في الفم.
الباب الثالث والثلاثون في علاج اللثات المسترخية من الفم.
الباب الرابع والثلاثون في علاج الخُناق وسقوط اللَّهاة.
الباب الخامس والثلاثون في علاج بحوحة الصوت.

الباب السادس والثلاثون في علاج الخنوقة العارضة في قصب الرئة.

الباب السابع والثلاثون في نفث الدم من المعدة.

الباب الثامن والثلاثون في علاج السعال الذي يكون من قِبَل الرئة.

الباب التاسع والثلاثون في علاج السعال الذي يكون من قبل الحرارة واليبوسة.

الباب الأربعون في علاج عسر النَّفَس.

الباب الحادي والأربعون في علاج المعدة.

الباب الثاني والأربعون في علاج القيء.

الباب الثالث والأربعون في علاج الفُوَاق.

الباب الرابع والأربعون في علاج المغص.

الباب الخامس والأربعون في علاج البطن وكثرة الإسهال.

الباب السادس والأربعون في علاج القُولَنْج.

الباب السابع والأربعون في علاج الدود والحيّات التي تكون في البطون.

الباب الثامن والأربعون في علاج أوجاع الكبد وما إليها.

الباب التاسع والأربعون في علاج الاستسقاء والنفخ.

الباب الموفي الخمسين في علاج الطحال.

الباب الحادي والخمسون في علاج اليرقان.

الباب الثاني والخمسون في علاج المقعدة.

الباب الثالث والخمسون في علاج الكلى والمثانة وتقرّحها.

الباب الرابع والخمسون في علاج من يبول في الفراش.

الباب الخامس والخمسون في علاج إدرار البول.

الباب السادس والخمسون في علاج تقطير البول.

الباب السابع والخمسون في علاج الخصيتين والإحليل.

الباب الثامن والخمسون في علاج أوجاع الرحم.

الباب التاسع والخمسون في علاج نزف الدم وسيلانه.

الباب الستون في علاج الجواري اللاتي يحتجن أن يضيّقن.

الباب الحادي والستون في علاج النِّقْرِس ووجع المفاصل.
الباب الثاني والستون في علاج الورم البارد السبب.
الباب الثالث والستون في علاج الورم المعروف بالحمرة.
الباب الرابع والستون في علاج الأورام الغليظة.
الباب الخامس والستون في علاج الدماميل.
الباب السادس والستون في علاج حرق النار.
الباب السابع والستون في علاج المضروبين بالسياط.
الباب الثامن والستون في علاج الحُزاز والقَوابي في الجسد.
الباب التاسع والستون في علاج البَهْو والبَرَص.
الباب السبعون في علاج الآثار العارضة بعد اندمال القروح.
الباب الحادي والسبعون في علاج الحكّة.
الباب الثاني والسبعون في علاج الثواليل.
الباب الثالث والسبعون في علاج البثر.
الباب الرابع والسبعون في علاج النفاخات.
الباب الخامس والسبعون في علاج القروح التي تكون في الرأس.
الباب السادس والسبعون في علاج السرطان.
الباب السابع والسبعون في علاج عضّة الكلب المجنون وغيره.
الباب الثامن والسبعون في علاج عضّة الإنسان.
الباب التاسع والسبعون في علاج لسع العقارب.
الباب الثمانون في علاج لسعة الأفعى.

يتبين لنا من معرفة عناوين هذه الأبواب قيمة الكتاب العلمية في الطب، وفائدته العملية في علاج الأمراض، وهو يعتبر، إلى جانب ذلك، وثيقة قيّمة ومهمة في تاريخ العلوم عند العرب، وازدهار حركة التأليف لديهم في القرن 4هـ/10م، ويمتاز هذا الكتاب بميزة أخرى، تعطيه أهمية خاصة، وهي كونه نصاً علمياً قديماً، له شأنه في تاريخ العلم وتطوره وتكامله في الحضارة الإنسانية عامة.

كما تميز ابن الجزار بسلوكه العلمي وأمانته وتواضعه في عمله الطبي، فهو لم يخف أنه قد كان جامعا لما ذكره أفاضل الأطباء من مكنون عملهم، وصحيح تجربته، من ذلك قوله في "علاج الأوجاع التي تعرض في الأسنان": فهذه الأدوية التي ذكرها دايقوريدوس وهي نافعة...."[37]، وقوله في سيلان الدم من النساء وإفراطه: "وزعم أرسطاطاليس أن العقيق الذي لونه على لون اللحم وفيه خطوط بيض خفيّة..."[38]، وقوله أيضا: "وذكر جالينوس دواء جرّبه فوجده يدّر الطمث في كل وقت..."[39].

لم يكتف بمجرد نقل الوصفة الطبية بل حاول أن يعلل نجاعتها أو عجزها عن العلاج، كما قام بمزج تلك النتائج بنتائج تجاربه وملاحظاته، فهو يجرب بنفسه، من ذلك قوله في علاج الريح العارض في الأذن: "ويعالج أيضا من به ريح غليظة بعلاج خاص.... فإنها تنفع من ذلك منفعة عظيمة بحول الله عزّ وجلّ وقوّته وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم"[40]، وفي الباب الرّابع والخمسون "في علاج من يبول في الفراش" قائلا: "والذي يبول في الفراش ولا يقدر أن يحبس بوله،... فإنّ ذلك مجرّب"[41]، وفي "علاج الجواري التي يحتجن إلى أن يضقن" وبعد ذكر العناصر اللازمة يقول: "وهذه من الخواص التي جرّبتها الأطباء وامتحنت فعلها، فوجدتها صحيحة، يعتمد على فعلها من غير ضرر ولا أضرار"[42].

ويجب أن لا ننس كثافة للمواد التي نصح المؤلف باستعمالها وكثرتها، وعن هذه الكثافة يحدثنا عن معالجة السعال قائلا: "إذا كان السعال من قبل النزلة الرطوبة وكان قديما، فينبغي أن يؤخذ لذلك بزر كتّان فيقلى ويعجن بكفايته من العسل المنزوع الرّغوة، ويتّخذ منه مقدار الحاجة. أو يأخذ صنوبر زنة درهمين يطبخ مع شيء من مروية بماء عذب ثم يصفّى ذلك الماء عنه ويخلط مع عسل ويطبخ حتّى ينعقد. ويعلق منه، فإنّه يخرج الرطوبة الكائنة في الصدر وفي الرئة"[43]، ويقدر عدد المواد التي ذكر في علاج السعال حوالي ثلاثون مادة مختلفة المصدر[44].

أمّا المواد المستعملة في علاج السعال أو غيره من الأمراض، اختلفت من حيث المصدر، منها ما له أصل نباتي كالنرجس، الفيجن، ورق الخوخ، الفلفل، الفليّو البري، قشور شجر التوت، حبّ القرع، ورق الكرم، البابونج، وغيرها من المواد، وأخرى ذات أصل حيواني اختلفت هي الأخرى كبعر الكباش الجبلية، أو قرن الأيل، ذنب سمكه مالحة، قشور البيض، مرارة الضأن، نمل أسود، بعر المعز، الحيّة... إلخ.

واستعمل مواد أخرى من أصل معدني أو سائل كالرصاص، الفخار، ماء البحر، الأصداف، نشافة البحر (الاسفنج)، الخل، العسل...إلخ، حتى الإنسان كان مصدرا هاما لبعض المواد العلاجية حيث ذكر في ذلك لبن المرأة، وشعرها، بول الغلام، ليتضح لنا من خلال الوصفات التي ذكرها المؤلف أنها مقسمة إلى قسمين:

1– نوع له أساس أقراباذيني[45]، وهو في الواقع علم العقاقير (يعرف في وقتنا بالطب البديل)، اشتهر به العلماء العرب الذين قاموا بتركيب الأدوية المفردة اعتمادا على الأعشاب[46]، ومن هذه الوصفات تلك الخاصة بعلاج أوجاع المعدة: "يؤخذ من الأنيسون وحسك، فيصيرا في خرقة كتان خفيفة نقية وينقعان في ماء حار..."[47]، أو قوله: "أو يؤخذ من عيدان النعناع ثلاث أواقي، فيصير في ماء الرمّان الحلو..."[48]، ويذكر وصفة أخرى قائلا: "يؤخذ الأنيسون وبزر كرفس من كل واحد درهمين، وكمون وزن درهم يدق ذلك ناعما، ويسقى منه ملعقة بماء حار على الريق[49].

2– نوع أساسه المعتقدات الشعبية، ومنه ما هو قريب من الشعوذة أكثر من قربها للطب أو الصيدلة، كذكره خلط بعر الشاة وروث الثور لعلاج الورم خلف الأذن...، أو استعمال جماجم رؤوس الكلاب ضمادا ينفع من قروح الرأس[50]، أو قوله عن معالجة الحصاة: "زعم بعض الأطباء أن صاحب الحصاة إذا أخذ روث الحمار وهو حار حال حدوثه وعصر وشرب ماؤه أنه كثير من الحصاة وأيضا خرو الحمام إذا شرب اذرى الرمل وفتت الحصاة المتولدة في الكلى والمثانة وخصوصا إذا أضاف إليه دار صيني، وغذا شرب خرو خطاف بالكندر والشراب فتت الحصاة التي في المتانة"[51].

وتجدر بنا الإشارة إلى الشبه الكبير بين بعض العلاجات التي ذكرها ابن الجزار والعلاجات الشعبية خلال القرن العشرين، ومنها مالا يتشابه، كذكره "طرق علاج الزكام المتولد من الشمس"، إذ يفيدنا قائلا: "إذا سحق الشونيز (الحبة السوداء) وجعل في صرة واشتم نفع من الزّكام"[52]، وهي مجربة وصحيحة، وتنفع أيضا من لهم صداع نصفي، كما ينصح باستعمال الكمون لعلاج آلام البطن قائلا: "يمضغ شيئا من كمون، ويبتلع ما تحلل منه"[53]، ومن الوصفات الناجحة التي ذكرها ابن الجزار نقلا عن جالينوس، استخدام قطر ماء البصل لعلاج ثقل السمع والطنين وسيلان القيح وطنينها[54].

كما يعطينا ابن الجزار من خلال كتاب "طب الفقراء والمساكين" فكرة عن اهتمام الأطباء المسلمين بالتخدير الموضعي، وهو ما نلمسه في حديثه عن علاج وجع الأضراس قائلا: "يؤخذ عروق الحنظل وتوضع أو حبه فيوضع على الجمر ويؤمر صاحب الوجع فيفتح فاه ويتلقّى الدخان بالموضع

الوجع. أو دخّنه بالخزدل وحب البنج فإن الوجع يسكن بإذن الله سبحانه"[55]، أمّا علاج الدّود الكائن في الأضراس فينصح بأخذ "أنبوبة قصب وقضيب دفلة، ويوضع طرفه على نار فحم والطرف الآخر في داخل الأنبوب، ويوضع طرف الأنبوب الآخر على الضرس حتّى يرتفع الدخّان ويضيّق فمه ..."[56].

خاتمة: من خلال هذه اللمحة الموجزة عن ابن الجزار يتبين لنا أنّه كان موسوعيًّا، كتب في أكثر من علم، إذ نجد من بين مؤلفاته كتبًا في علم التاريخ وعلم النفس، وغير ذلك، إنّه طبيب ذائع الشهرة من علماء وأطباء الحضارة الإسلامية، الذين كان لهم فضلهم وأثرهم الباقي حتى يومنا هذا، ويعد كتاب "طب الفقراء والمساكين" واحدا من الكتب التي تركها لنا ابن الجزار.

كما أنّ مؤلفنا قام بتدوين كل ما وصلت إليه يداه من معلومات طبية وما قام به من تجارب مختبرية وبحوث ودراسات ذات طابع علمي في الطب في عدد من الكتب والرسائل جعلها ميسرة بين أيدي العامة.

أمّا كتاب "طب الفقراء والمساكين" فتميز بالمجهودات العلمية لصاحبه، إلاّ أنّ الجانب الإنساني فيه يبدو واضحًا وعميقًا، إذ يكشف لنا وجهاً اجتماعياً حميداً له، حيث اهتمام بتصنيف دليل علاجيّ للفقراء والمساكين، يستطيعون بما يملكون من الأموال القليلة أن يهتدوا إلى الدواء المناسب لكل حالة، بما يحفظ صحتهم دون أن يكلفهم ما لا يملكون، وفي الواقع هذه الحقيقة يؤكدها ياقوت الحموي حين قال عنه: "وكان له معروف وأدوية يفرقها"[57]،أي يوزع الأدوية على ذوي الحاجة إليها بدون ثمن، خاصة وأنّه كان يملك ثروة.

الهوامش:

1- الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، دار صادر، بيروت، 1397/ 1977 م، ج1، ص187.

2- ابن جلجل، أبو داوود سليمان بن حيان لأندلسي (من رجال لقرن الرابع)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، لقاهرة، 1955، ص88/ ابن أبي اصيبعة، موفق الدين أبو العبلس أحمد بن القاسم، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الفكر، بيروت، 1377 هـ/ 1957م، ص.442

3- ابن جلجل، لمصدر نفسه، ص87. --- 4- لمصدر نفسه، ص87. --- 5- نفسه، ص88.

6- نفسه، ص89/ ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص442- 443. --- 7- ابن جلجل، نفسه، ص89/ ابن أبي أصيبعة، نفسه، ص443. --- 8- ابن صاعد، الأندلسي، طبقات الأمم، نشر لويس شيخو ليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، ص62/ ياقوت الحموي، لمصدر السابق، ج1، ص187.

9- ابن جلجل، المصدر السابق، ص89/ ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص442- 443.

10– للقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين المشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948، ص132–133.--- 11– ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص443.--- 12– الحموي، ياقوت، المصدر السابق، ج1، ص188،

13– ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس وللمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980، ج1، ص.237

14– حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مطبعة وزارة المعارف التركية، إستانبول، 1941 .1942 م، ج1، ص81/ فروخ عمر، تاريخ العلوم عند العرب، جار العلم للملايين، بيروت، 1970م، ص282.--- 15– ابن جلجل، المصدر السابق، ص89/ ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص442.--- 16– ابن صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص61/ ياقوت الحموي، المصدر السابق،ص187.--- 17– ابن جلجل، المصدر السابق، ص89.--- 18– ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص188.

19– ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص443–444.--- 20– عادل محمد علي الشيخ حسين، ابن الجزار القيرواني، سيرته، مؤلفاته، جهوده في الطب والصيدلة، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأدرن، د/ت، صص39–40.

21– ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، تحقيق الراضي الجازي وفاروق العسلي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس، ط(2009)، مقدمة المحققان، صص41–57.--- 22– الزّرْكلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1979م، ج1، ص85–86--- 23– يقصد كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر.--- 24– ابن الجزار، طب الفقراء والمساكين، ص76.

25– ابن الجزار، المصدر السابق، ص76.--- 26– المصدر نفسه، ص259.---27– نفسه، ص185– 203–202–240–256.---

28– نفسه، ص121.--- 29– نفسه، ص121.---30– نفسه، ص76.--- 31– القفطي، تاريخ الحكماء، نشر جيليوس ليبار، طبعة 1908، ص23/ ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص119–135.--- 32– ابن الجزار، المصدر السابق، ص82–88.--- 33– نفسه، ص100–101.--

34– نفسه، ص102.--- 35– نفسه، ص76.---36– نفسه، ص76.---37– نفسه، ص.126

38– نفسه، ص215.---39– نفسه، ص216.--- 40– نفسه، ص99.--- 41– نفسه، ص204.---42– نفسه، ص221.---

43– نفسه، ص150.--- 44– نفسه، ص150–153.--- 45– أقرباذين كلمة فارسية الأصل، ويعتبر جالينوس المؤسس الحقيقي لعلم الأقرباذين. رياض رمضان العلمي، الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم، عالم المعرفة، الكويت، 1988، ص56.--- 46– المرجع نفسه، صص54–146.

47– طب الفقراء والمساكين، ص160.---48– نفسه، ص160.---49– نفسه، ص162.---50– نفسه، ص253.---51– نفسه، ص 138.---52– نفسه، ص121.---53– نفسه، ص162.---54– نفسه، ص97.---55– نفسه، ص130.---56– نفسه، ص131.--

57– معجم الأدباء، ج1، ص188.

Summary: Medical science had one of the most important science that showed Arab Muslims marked interest in her studies, as they follow the most important findings of scholars of Greece in enriching this aspect, in particular to translate Greek medical books and study and diagnose the error places having reached great discoveries scientific experiment application, including personal Ibn El djazzar Al-quairouani.